الضمير ودوره في إثار انتباه السامع

عصام عبدالله محمد
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – كلية اللغات

المستخلص

إن غرض كل كلام هو اقتفاء أثر المعنى الذي تؤديه الكلمة في سياق تركيبها ،ومعنى ذلك انه ليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالى ألفاظهافي النطق ،بل هو تناسق دلالتها وتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل .

لذلك تتجلى خصوصية الأسلوب فياختيار الكلمة الدقيقة السائغة في التركيب لتؤدى معنى ليس منفصلا لذاته بل معناها في الجملة التي تقع فيها . فيرجع صحة النظم إلى علم النحو و أحكامه في تركيب الجملة ،ثم ربطها بجمل أخرىتتنوع بين الجملة الاسمية والفعلية بحسب الأغراضيقومالضمير فيها بدور الرابط .

إن معظم الدراسات التي تناولت الضمير تناولته من حيث وضعه وأنواعه وأقسامه باعتبارات مختلفة ، ولم تنظر إليه في سياقه التركيبيلأداء مهام بعضها يتعلق بالسياق والآخر يتعلق بالمتلقي. فانتشار الضمائر بصورة عامةفي الكلام العربي وفى سورة محمد ويوسف بشكل خاصقد احدث نغماً صوتياً جذاباًبإيقاع لاتحس معه مللاً بل يزيد من سكينة النفس ولاينفصل المعنى عنها .

إن التركيز على الضمير سواء كان في الأسلوب القصصي أو النص المجرد أمر له مدلوله الذهني ما يجعل السامع في حالة نشاط عقلي دائم . لذلك فإن هذه الدراسة جاءت لتبين دور الضمير فيإثارةانتباهالمتلقي و لتجيب عن أسئلة أين موضع الإثارة؟ أهي في بنية الضمير أم هي في كونه أداة ربط؟ من خلال استنطاق بعض النصوص من سورة محمد ويوسف. ونهدف من ذلك استخدام هذه الخاصية في تنمية القدرات العقلية لدى الناشئة والعامة على حد سواء والمنهج المتبع في الدراسة المنهج الوصفيالتحليلي مع دراسة بعض النصوص ومن ثم الاستنتاج (ذلك أن كل عنصر في بنية النص يمثل جزءاً في بناء دلالته، سواء كان عنصراً صوتياً أم صرفياً أم نحوياً) [1](حماسة محمد–2005) وخلصت إلى نتائج منها أن مايختص به الضمير من البناء والجمود أمر مثير للانتباه ذلك أن بنيته تثبت على صورة واحدة غير متغيرة، متكررة مع ثبات معناه ودلالته . فإنه لايتأثر بالعوامل المختلفة فالجمود والبناء والاختصار ، وإزالة الالتباس ، جعلت التركيب بعيداً عن التعقيد الذي يثير غضب السامع فالراحة النفسية ينتج عنها إثارة الانتباه ومن ثم التركيز على المعنى .

أن جميع الضمائر تتضمن معنى الإشارة التيينعدم معها الالتباس ويتحدد المعنى بحسب حالة المتكلم وقربه منه فينتج عنه التركيز.

الكلمات المفتاحية :الحضور العقلي – الذهني .

ABSTRACT

The purpose of all speech is to trace the meaning which word plays in the context and this means that speech does not follow words in pronunciation merely, but in their signification and the meaning that isconvey .This obviously seen in the way

we choose the accurate word in the structure to give a meaning that is not separated but related to the context. Using the second structure depends on grammar and its rules in forming the sentence and connecting it with it which varied from nominal and verbal sentence according to the purpose where the pronoun plays the role of connection.
Most of the studies that addressed the pronoun dealt with its kinds and divisions in different ways but they never concerned with the structural context or the recipient. Pronoun are common in Arabic speech particularly in SurahMohammed and Yousifwhich give an attractive vocal rhythm and you never feel tedious or boredom but tranquility not separated from the meaning.
The emphasis on pronouns whether infection style or abstract text has its mental effect which makes the listener in a mental activity. Therefore this study shows the role of pronoun in taking the attention of the recipient and to answer the question where is the place of excitement? Is it in the structure of the pronoun or as being a means of connecting? By investigating some verse from Surah Mohammed and Yousif, hence we aim to develop the mental abilities of the young's and the public.
This study follows analytical and descriptive approach with some example from texts and then the conclusion (so that each element in the structure whether it is audioor derivatives or grammar is significance introduction to semantic grammar.
The study has concluded that the uniqueness of pronoun in construction is a matter of attention and proved that the formation of pronoun stick on a single way never changes and repeated with a fixed meaning and significance and it is not affected by various factors such as voice and short cut more over eliminate the confusion which make the meaning not complicated and the listener does not feel angry because the psychological comfort is resultedfrom attracting the attention and concentrating in meaning. All pronoun include demonstrative meaning which eliminate confusion and determine the meaning according to the state of the speaker .

المقدمة:

إن الضمير معرفة من المعارف ، والمعرفة في اللغة (من عرف الشيء عرفاناً، ومعرفة : أدركهبحاسة من حواسه ، وعرّف فلاناً بكذا : وسمه به) (المعجم الوسيط، مادة عرفة) فالمعاني السابقة دالة على معنى مشترك و هو تحديد الشيء و تعيينهبإحدى علاماته المميزة ، وهو أقرب إلى المعنى الاصطلاحيبأنه (ماوضع ليستعمل في شيء بعينه كالضمير والعلم) (بن عقيل ج1، بدون).

فالمعارف تدل على معين ،غير أنها تتفاوت في درجة التعيين والتحديد وأن التعيين بها ليس مطلقاً فمثلاً لوقلت : أنا في المنزل ، فقد تحدد المعنى في المتكلم ، فلا ينصرف الذهن إلى غيره ،فتمنع الاشتراك التام في مدلوله ، ذلك أن معظم الدراسات تناولت الضمير فيإطار محدود من حيث الوضع و الأنواع فلم تنظر إليه من حيث بنيته و سياقه في التركيب وأثر ذلك على المتلقي ، وتأتي أهمية الموضوع في كونه يجيب عن بعض الأسئلة .

ما المعايير التياتخذتفي تحديد المعرفة ؟ و ما الذي يميز الضمير عن سائر المعارف حتى جُعل في المرتبة الأولى؟ و ما سبب كثرتها في السياق؟ و هل هناك أثر لاتصال الضمير أو انفصاله على ذهن السامع أو المتلقي؟ فإن تحليل بعض النصوص من سورة محمد و يوسف أجابت عن كثير من الأسئلة و نستنتج من

ذلك أن الوقوف على الضمير و تتبع تركيبه في السياق و ما يرمي إليه من معنى دور كبير في تنمية المقدرات العقلية، فنوصي بالوقوف على الضمير عند تحليل النص لأنه يوضح الهيئة الكلامية بإظهار المتكلم و المخاطب في كثير من المواقف سواء كانت حوارية أو غير ذلك لشد انتباه السامع و تركيزه في زمن خملت فيه العقول و سادت العواطف و الانفعال.

معايير تحديد المعارف:

وضع الضمير في المرتبة الأولى من حيث تحديد المدلول حيث جاء في" قطر الندى ، (و معرفةُ و هي ستة: الضمير؛و هو ما دل على متكلم أو مخاطب أو غائب و العَلم، و الإشارة ، و الموصول، و ذو الأداة ، و المضاف إلى معرفة) (بن هشام– د.ت) .

فإن هنالك معايير معينة رتبت بها المعارف، باعتبار القرينة و عدمها في دلالتها و تحديدها للاسم، و جاء على هذا الأساس بالضمير و العَلَم أولاً ثم الإشارة فالموصول فالمعرف (بال) لأن التعريف بها يتعين بواسطة قرنية لفظية أو معنوية أو حسية ، و كان الأَوْلَى تقديم العَلَم على الضمير، ذلك أن العلم يعين مسماه مطلقاً دون قرينة لفظية أو معنوية و لكن بالنظر إلى الحضور العقلي و الواقعي فقد جاء بالضمير أولاً. فإن الضمائر بحسب التكلم و الخطاب يتمثلها الحضور الذهني و الواقعي لذلك جيء بضمير المتكلم و المخاطب في المرتبة الأولى (أنها تفيد معاني خاصة بها مستقلة لا يكنى بها عن شئ آخر من الأسماء فالكلام من طبيعته و جوهره أنه متكلم فـ (أنا) المتكلم أصل كل كلام و منبعه و أقدم منه، و المتكلم لا يكلم نفسه في الأصل بل مخاطباً ف(أنت) المخاطب أصل ثان (عبد التواب رمضان،192

فالذي يميز الضمير الحضور الذهني و الواقعي، بينما العَلَم يقتصر على الحضور الذهني فقط، لأنه بالنظر إلى الواقع نجد دلالة اللفظ فيه يشترك فيها مجموعة من الأفراد مما ينتج عن ذلك بعض الإبهام و ما يؤكد ذلك وضع ضمير الغائب من حيث الترتيب بعد العلم، و قبل اسم الإشارة لأنه من ناحية يشترك مع العلم في الحضور الذهني و من ناحية أخرى يشترك في تعيين و تحديد مدلوله بتقدم معرفة أو نكرة مع خلوه من الإبهام .

فإذا كان الحضور الذهني له درجات من حيث القرب أو البعد فذلك الذي وضع ضمير الغائب في موضعه الحقيقي. و الضمير هو أعرف المعارف و هو (ما يكنى به عن متكلم أو مخاطب أو غائب فهو قائم مقام ما يكنى به عن مثل: أنا، أنت ، هو) (الغلاييني مصطفى–2006).

أقسامها من حيث الوضع و الدلالة : و سمي ضميراً من قولهم أضمرت الشئ إذا سترته أو أخفيته أو من الضمور و هو الهزال لأنه في الغالب قليل الحروف و يلاحظ أن الحروف الموضوعة له غالبها مهموسة و هي التاء ، الكاف و الهاء و الهمس هو الصوت الخفي .

و من حيث الدلالة و الوضع تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

المتكلم نحو: أنا – نحن / المخاطب نحو: أنت – أنتِ – أنتما – أنتم – أنتن / الغائب نحو: هو – هي – هما – هم – هن.و سمي ضمير المتكلم و المخاطب ضمائر الحضور لأن صاحبها لابد أن يكون حاضراً وقت النطق، فالضمائر معارف غير أنها ((لا تختص بواحد دون آخر، فإن (أنتَ) ضمير للواحد المخاطب و يصح أن تخاطب به كل من يصلح للخطاب. و (هو) ضمير للغائب و يصح أن يكنى به كل مذكر

غائب. و(أنا) ضمير للمتكلم الواحد و يصح أن يكنى به عن نفسه كل متكلم)) (الغلاييني مصطفى-2006).

مما يلاحظ على الضمائر أنها سواء كانت لمتكلم أو مخاطب أو غائب فإنها ترد متصلة أو منفصلة بصيغ متعددة. غير أن روح المعنى يظل يلازمها في كل حالاتها. أي أنها تشارك نظائرها في الدلالة على التكلم أو الخطاب أو الغيبة، فكل ضمير منفصل له نظير آخر متصل يماثله في معناه مثل: أنا و يماثله التاء في (كتبتُ) و نحن يماثله (نا) في كتبنا.

أما من حيث التعريف أو التحديد فإن الضمير يعين مسماه بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة فقد رتبت الضمائر داخل أنواعها من حيث تحديدها لمدلولها باعتبار الحضور الذهني و الواقعي فوضع المتكلم في المرتبة الأولى فالمخاطب ثم الغائب، و إنما كان ضمير الغائب أحط مرتبة في التعريف من المتكلم و المخاطب، لأنه لم يوضع معرفة بذاته بل بسبب مرجعه و لهذا لابد له من مرجع في الكلام ليفهم معناه. كما يلاحظ أن ضمير المتكلم و المخاطب خاصة بالعقلاء بينما ضمائر الغياب مشتركة بين العقلاء و غيرهم. فالتعريف بالضمير يكون بحسب المقام من تكلم أو خطاب نحو: أنا جلستُ، و أنت قمتَ، أو غيبة نحو : هو لم يكتب بحيث يكون لضمير الغيبة مرجع تقدم ذكره لفظاً نحو: جاء محمد و هو يجري، أو تقديراً نحو: (أعدلوا هو أقرب للتقوى) أي (العدل) المفهوم من السياق (أعدلوا)، أو حكما كضمير الشأن، و هو ضمير يذكر قبل الجملة الاسمية أو الفعلية في موقع التعظيم أو التفخيم نحو: (قل:هو الله أحد).

ما يميز الضمير :

إن أهم ما يميز الضمير الجمود، ذلك أن بناء اللفظ غير مشتق، فاللفظ ثابت على صورة واحدة متكررة مع ثبات معناه و دلالته، و أنه مبني فصورة اللفظ لا تتأثر بالعوامل، و ذلك ما جعله أكثر تناسباً للحضور الذهني فقد يتكرر اللفظ مع ثبات مدلوله في ذاكرة العقل.

و بسبب هذا البناء لا يثنى و لا يجمع فلا تدخله العلامة الخاصة بالتثنية أو الجمع، و إنما يدل بذاته و تكوين صيغته على المفرد المذكر أو المؤنث (أنا-أنت-هو-أنتِ-هي)، و على المثنى المذكر و المؤنث بنوعيه فلا ضمير يختص بأحدهما دون الآخر، (أنتما-هما) أو على الجمع المذكر (هم -نحن-أنتم)، أو الجمع المؤنث (هن-أنتن-نحن) فلا يتم معناها إلا بانضمامها إلى شئ آخر. إن هذه السمات جعلت الضمير ينسجم مع أغراضه التي تتمثل في الاختصار، و البعد بالكلام عن التكرار و إزالة الالتباس عن كثير من الأسماء الظاهرة نحو: قابلت المشرف و تحدثت مع المشرف في آخر الرسالة ثم غادرت مكتب المشرف و وعدت المشرف بزيارة قريبة. فتكرار كلمة (المشرف) أضفت على التركيب نوعاً من التعقيد و الركاكة و التي تثير غضب السامع في إدراك المعنى و تجعله في شعور بعدم الراحة بعكس قولنا:قابلت المشرف، و تحدثت معه في أمر الرسالة، ثم غادرت مكتبه، و وعدته بزيارة قريبة فقد أغنى الضمير عن التطويل و التكرار و جعلت العقل أكثر تركيزاً و راحة.

الدلالة الصوتية للضمائر و أثرها على السامع:

الضمائر سواء كانت للمتكلم أو المخاطب أو الغائب يلاحظ فيها كثرة ألفاظها مع اختصاص كل ضمير بوظيفة معينة فضمائر المتكلم تنحصر في الضمير (أنا) و يختص بالمفرد مذكراً كان أو مؤنثاً. أما الضمير

(نحن) فمشترك بين المثنى و الجمع ، و لعل قلة هذين الضميرين يعود لقرب حضوره وقت النطق به من ذهن المخاطب و قربه من السامع، فالإنسان يتحدث عن نفسه فيقول (أنا) فيتحدد في ذهن السامع . ذلك أن الضمير (أنا) المكون من حرف الهمزة و النون كلاهما يتميز بصفة الجهر و هو انحباس النفس عند النطق، فالقوة الناتجة عنهما تتناسب مع الألف في آخر الضمير للإطلاق، فلولاها لحدث انفجار نتيجة لهذا الانحباس. فبدايته بالقوة و إطلاق الألف دلالة على وصول هذا الصوت إلى أبعد مجال ينتهي عنده، فالحروف التي تكون بنية الضمير (أنا) يظهر عليها الانسجام الصوتي و الموسيقي الذي يبدأ بالقوة ثم يتدرج إلى التلاشي فهذا التدرج له أثره في سمع المخاطب و شدة انتباهه.

أما ضمير المتكلم (نحن) فإن تكوينه الصوتي يبدأ بحرف صفته الجهر، و ينتهي بحرف صفته الجهر، فكان لابد من الفصل بينهما بحرف مغاير و مباين لتلك الصفة و هو حرف الحاء الذي يتميز بصفة الهمس لتسهل عملية تسرب الصوت. فإذا علمنا أن النون تصنفضمن الحروف التي تقع بين الشدة و الرخاوة، فإن هذه الصفة تجعل منها وسيلة لتوزيع الصوت بطريقة دائرية.

فإن الدلالة الصوتية لضمائر المتكلم تتناسب مع دلالتها الوضعية، حيث أن الضمير الدال على المفرد يتميز بقوة الصوت عند بدء النطق ثم يتدرج إلى السهولة و هو يمر بمراحله الأخير لتناسب (المفرد) و إثارة الانتباه . أما الدلالة الصوتية لضمير المتكلمين (نحن) فإن اللفظ يدل على أكثر من واحد دلالة وضعية و أن قوة انفجار الصوت المتمثلة في حرف النون في الأطراف تتلاشى تدريجياً في وسطه فكأنما يشير إلى الجماعة.

أما ضمائر المخاطب {أنتَ – أنتِ– أنتما– أنتم– أنتن}(أنتَ) يلاحظ في بنيتها أنهاتتكون من ثلاثة أحرف الهمزة و النون التاء و كان للنحاة رأي في ذلك فالبصريون يرون أن الضمير هو (أنْ) و قد زيدت فيه التاء لبيان الخطاب، فالتاء عندهم زائدة.

و يرى آخرون أن الضمير هو التاء و قد دعمت بـــــ(أنْ) فالرأيان عمدا إلى فصل بنية اللفظ دون مبرر واضح فهم يتفقون في دلالة اللفظ على معنى الحضور الخطابي غير أنهم يختلفون في مصدر هذه الدلالة أهي في التاء أم في (أنْ) التي أشار إليها بعض النحاة أنها ترادف الإشارة في دلالتها. (عبد التواب رمضان – 1929).

فالملاحظ في ضمائر الخطاب تتكون من مقطعين الأول (أنْ) و تتفق فيه جميع الضمائر، يتضمن معنى الإشارة.أما المقطع الثاني فالتناسب فيه واضح بين المفرد و الجمع و المثنى. فإن الدلالة الصوتية لضمائر الحضور سواء كانتللمتكلم أو المخاطب ، متحدة تبدأ بصوت قوي ثم يتدرج إلى الضعف إن كانت للمفرد، أو يزيد في القوة إن كان الضمير دالاً على المثنى أو الجمع مما يجعله ثابت الأثر في أذن السامع و قوي الذاكرة في تتبع سياق الكلام.

أن ضمائر الغياب لها صيغ كثيرة في اللغة العربية فما كان ضميراً بارزاً صيغته مبنية على حرف الهاء متصلاً كان أو منفصلاً سواء كان في محل رفع أو نصب أو جر) (صبره محمد حسين –2001).

قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً }– البقرة:29.

قال تعالى: وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}– البقرة: 172.

قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ} – يوسف الآية 4.

قالت تعالى: { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}– البقرة 187.

فالضمير (هو)مبني في محل رفع مبتدأ، و (إياه) مبني في محل نصب خبر كان، بينما الهاء في (لأبيه) في محل جر مضاف إليه. فإن هذه الضمائر جاءت مبنية على (الهاء) على اختلاف مواقعها الإعرابية. كما يلاحظ أن الضمير في حالة الجر يقتصر على الجر بالإضافة أو بحرف الجر مثل: (لهن في قوله تعالى: { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}).

إن حرف الهاء من حروف الهمس و له دلالة صوتية معينة يشعر بجريان النفس عند النطق بالحرف، لضعف الاعتماد على المخرج بحيث لا يهتز الوتران الصوتيان، فيبدأ الصوت منخفضاً مع شيء من الرخاوة حتى يصل حرف الواو و الياء اللذان يتصفان بالجهر في ذاتهما، بالإضافة إلى الصوت القوي الناتج من حركة البناء على الفتح في ضمير الغائب و الغائبة (هو و هي) للدلالة على معنى الإشارة و كذا حرف الميم في المثنى و الجمع.

فإذا قورنبضمائر الحضور نجدهيبدأ بالهمس و ينتهي إلى الجهر مع تضمن معنى الإشارة في آخر الضمير و تعليل ذلك يعود إلى قرب و بعد المخاطب و الغائب ما يؤكد أن الدلالة الصوتية للضمير لها أثر في ذهن السامع.

فقد يأتي الضمير مستتراً فلا تظهر له صورة في اللفظ و الكتابة، و هو في حكم الضمير الموجود في اللفظ، فلا يسمى محذوفاً لأنه موجود دون أن تظهر صورته نحو قوله تعالى: {الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم } نلاحظ أن هناك ضميراً مستتراً في الفعل (أضلّ) تقديره هو (اختلف المفسرون في مرجعه ، فبعضهم بين أنه عائد إلى الله لفظاً و معنى، أو إلى النبي صلى الله عليه و سلم في المعنى، بأنه أبطل بالنبي العمل الذي يقومون به) [8](أبي الطيب صديق بن حسن – بدون).

و يحتمل أن يرجع الضمير للعمل نفسه، فلو ذكر (الاسم الظاهر) بعد الفعل (أضلّ) لانتهى تحقيق كل تلك الدلالات، و انصرف ذهن السامع إلى كيفية ضلال أعمالهم، فباستتار الضمير يظل الفاعل المقدر هو (الله) في ذهن السامع مع احتمال مرجعيات أخرى كما ذهب إليها المفسرون. ذلك أن الضمائر تتداخل في سياق الكلام بمرجعيات مختلفة بصورة متباينة دون أن تحدث خللاً معنوياً أو تنافراً في اللفظ.

و قد يرد الضمير متصلاً في آخر الكلمة سواء كانت الكلمة اسماً أ فعلاً أو حرفاً و ذلك لأن الضمير معمول و ما اتصل به عامل، فالعامل يتقدم المعمول في العُرف النحوي فإذا تقدم الضمير خرج إلى موقع آخر غير الموقع الذي حول عنه و لتغير المعنى فالعلاقة بين الضمير و عامله علاقة دلالية فإن تقدم خرج عن تلك الدلالة إلى أخرى جديدة دقيقة وفق اللفظ الذي دخلت عليه.

فإذا قورن الضمير المتصل بالمنفصل في حالة الرفع فإن هناك تغييراً طرأ عليه و على عامله، فقد تغيرت صورة اللفظ في الضمير متأثراً بعامله الفعل. بأن تقلص حجم الضمير إلى الصغر لحد الاختصار. نحو: كتبنا – شربا – ناما. أما عامله الفعل فقد أثر الضمير عليه بأن جعل حركة الفعل ثابتة تتغير وفق نوع الضمير المسند إليه، هذا الثبات يعين العقل على التركيز.

ينحصر اتصال الضمير بالفعل في الضمائر التي تقع موقع الرفع فلا يجتمع ضميران في فعل واحد و ذلك لطبيعة اللغة أن لكل فعل فاعل أو نائب فاعل. أما الضمائر التي تقع موقع النصب فقد يكون للفعل مفعول واحد أو يجتمع للفعل أكثر من مفعول وعندها يرتب الضمير حسب قربه من ذهن السامعو درجة التحديد و التعيين، التي تميز كل ضمير. المتكلم أخص من المخاطب و المخاطب أخص من الغائب. نحو: الكتاب أعرتُكَه.

فجملة (أعرتُكَه) حوت ثلاثة ضمائر: (تاء الفاعل) للمتكلم و هي في محل رفع فاعل، ثم (كاف الخطاب) و هي في محل نصب مفعول به أول، ثم (الهاء) للغائب عائدة'' على الكتاب و هي في محل نصب مفعول به ثانٍ. فهناك مفعولان (الهاء و الكاف) لفعل واحد هو (أعار).فلا بدّ من ترتيبهما فجاء بضمير الغائب أولاً لأنها أخص ثم الهاء للغائب .

ذلك أن اللبس يقع عند اتصال الضمير. أما في حالة انفصال أحد الضميرين فيزول الغموض و اللبس، فلا يعمل بالرتبة فيجوز: {الكتاب أعرتُك إياه ، أو الكتاب أعرتُه إياك}،ما يؤكد أن الضمير المنفصل أقرب إلى ذهن السامع من حيث الإثارة و الانتباه و التركيز.

و من الضمائر الخاصة التي تثير انتباه السامع ضمائر الفصل و الشأن، فضمير الفصل سمي بذلك لأنه يفصل في الأمر حين الشك و اختفاء القرينة فيرفع الإبهام و يزيل اللبس بسبب دلالته على أن الاسم بعده هو الخبر، و أن ما قبله مبتدأ أو ما أصله مبتدأ و ليست صفة أو بدل فنقيد في الكلام معنى الحصر و التخصيص نحو: الشجاع هو الناطق بالحق يبغي رضا الله.

و كذا ضمير الشأن، و هو ضمير يذكر قبل الجملة الاسمية أو الفعلية في مواقع التعظيم أو التفخيم، تفسر دلالته و توضح المراد منه و معناها معناه. ذلك أن العرب إذا أرادوا أن يذكروا جملة (اسمية أو فعلية) تشتمل على معنى مهّم أو غرض فخم، يستحق توجيه الأسماع و النفوس إليه لم يذكروها مباشرة و إنما يقدمون لها بضمير يسبقها ليكون الضمير بما فيه من إبهام و تركيز مثيراً للشوق و التطلع إلى ما يزيل إبهامه، فتأتي الجملة بعده و النفس متشوقة لها مقبلة عليها في حرص و رغبة.

نحو قوله تعالى: {قل: هو الله أحد} فهو بمثابة رمز لها أو إشارة توجه إليها فهو كناية عن الجملة يوجه النفس إليه بإثارة الشوق و التطلع إلى ما يجئ بعده.

إذن كل من الوضوح، و التأكيد ، و الغموض، معانٍ لها دلالتها المطلوبة لتحقيق الأغراض البلاغية من الكلام.

و قد يضاف الضمير إلى الاسم و ينتج عن ذلك أثراً معنوياً من حيث تحديد الرتبة. فقد نزلت به هذه الإضافة إلى رتبة العلم و قد حصرت دلالته في معنى الملكية ذلك أن حرف الجر المقدر عند إضافة الضمير إلى الأسماء هو (اللام) على الإطلاق، فإنها دالة على معنى الملكية،فتقع في أذن السامع بلا مشقة أو عناء ذلك أن اللام حرف عام في الإضافة، لأن تقديره غير مشروط بشرط كما هو الحال في حرف الجر (من ، في) .

أما من الناحية اللفظية فإن عامله يتغير بينما يبقى الضمير على صورة واحدة مع الأسماء فلو أضيفت كلمة (غلام–سور) إلى الضمير نجد أن صورة الضمير واحدة غير متغيرة مع الكلمتين فإن المضاف لا يتأثر

باتصال الضمير و هذه الميزة جعلت السامع في حالة تركيز و جذب للانتباه حتى يظل المعنى مستقراً في الذهن.

عند اتصال الضمير بالحروف، فإنه في الغالب يتصل بالحروف الناسخة أو حروف الجر، و ذلك لأنها تفيد معنى خاص بها يتحد مع معنى الضمير فلا تؤثر في الضمير و لا تتأثر به. فاللفظ ثابتو المعنى متغير .

و خلاصة الأمر إن إثارة انتباه السامع تأتي من عدة نواحي بعضها يتعلق ببنية الضمير، و الآخر يعود إلى التركيب و السياق و الذي يتعلق بالضمير هو ثبات صورة الضمير سواء كان للمتكلم أو المخاطب أو الغائب.. ذلك أن ما تختص به الضمائر من حالة البناء أو الجمود أمر مثير للانتباه لأن بنيتها تثبت على حالة واحدة غير متغيرة و لا تتأثر ظاهرياً بالعوامل المختلفة و أن معناها لا يتم إلا بانضمامه إلى لفظ آخر.ثم أنها تتضمن معنى الإشارة و هي أبلغ و أدل على التركيز لأنها تلفت ذهن السامع في اتجاه معين.

كل ذلك جعلها أهم الأدوات لشد الانتباه في السياق لأنها منتشرة و متباينة و خاصة ضمائر الغياب ذات المرجعية و المبنية على الهاء، فسرُّ الهاء في إثارة انتباه السامع يرجع إلى كثرتها و ما تمتاز به من خصائص صوتية تجعل المستمع في حالة من التركيز و الرجوع بالذاكرة إلى الوراء بالنظر إلى مرجعه المتمثل في المرجع الصريح الواضح الذي يهتدي إليه كل إنسان نحو قوله تعالى: {فأدع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها}- البقرة (61) ، فالضمير الهاء مرجعه كلمة الأرض.

و قد يكون غير صريح، و هو المرجع المفهوم من سياق الكلام و يحتاج إلى إعمال فكر و طول نظر، و هو ما يحرك السامع و يشد انتباهه بالتركيز نحو قوله تعالى: {إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون* إني لكم رسول أمين* فاتقوا الله و اطيعون* و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين}- هود (124-127). فالضمير في (عليه) يعود على التبليغ و ليس مذكوراً في الكلام صراحة، و إنما هو مفهوم من قوله تعالى: {إني لكم رسول أمين}. و من أمره لهم بتقوى الله، فإن اختلاف المراجع كسر للملل و ربط لذهن لسامع بالمعنى و تركيزه و بعدمه لا يفهم للسياق معنى.

كما أن ترتيب الضمائر ضرورة ملحة الأخص فالأخص فكل ضمير يصلح لموضع من التركيب فالمتكلم و المخاطب أقرب للأذهان و الحال لذلك تصلح في الربط، للهيئة و الحالة الماثلة فلو ابتعدت كانت مصدر خلط للمعنى بينما ضمائر الغياب تصلح لربط السياق عامة لبعدها عن الحال و المرجع الذي يعود إليه الضمير.

هناك مواضع إثارة مرتبطة بالتركيب، و هي حذف الضمير مع إمكان ذكره فقد ذهبت الآراء كل مذهب في تعليل الغرض من حذفه ، منهم من علل الحذف للاختصار و بعضهم قال إن الحذف اكتفاء يفهم السامع لمعناه و بعضهم يرى أن الحذف بدلالة ما قبله على المحذوف تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة و الإيناس و بمجموع الآراء تكتمل الصورة.و يضاف إلى ذلك عنصر إثارة انتباه السامع.

نحو قوله تعالى: {فأعلم أنه لا إله إلا الله و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و الله يعلم متقلبكم و مثواكم }(19)

فقد وردت الواو عاطفة للجمل ثلاث مرات على تقدير عامل محذوف مع الضمير المستتر في (المؤمنين و المؤمنات) فالضمير محذوف مع عامله (استغفر) على نية ذكر، فهو باق في ذاكرة المتحدث و المخاطب، ذلك أن الضمير مرتبط بالهيئة الكلامية التي لا تهتم إلا بثلاثة محاور متحدث و مستمع و كلام منقول.

ومن مظاهر إثارة انتباه السامع ما يعرف بذكر الضمير أو تكراره لترسيخ اليقين و الإقناع النفسي لأداء المعنى.فالتكرار و التنوع صفات يتميز بها الضمير لإحداث نغمة صوتية تأنس لها أذن السامع دون خلل في المعنى أو تعقيده أو ثقل في النطق ذلك أن الضمير ذو المرجع الأول إذا تكرر، تكرر بإظهار الضمير و إبرازه في ثبات معناه و اختلاف لفظه بانسجام تام مع ما يدخل عليه من لفظ، سواء كان اللفظ اسماً أو فعلاً أو حرفاً مؤثراً فيه و متأثراً به، يقابله ضمير مستتر في الغالب محدثاً بذلك إيقاعاً متناغماً يجعل السامع أكثر تركيزاً و انتباهاً. قال تعالى: {و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و آمنوا بما نزل على محمد و هو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم و أصلح بالهم}(2). فالضمير (واو الجماعة، هم) في (آمنوا ، عملوا ، ربهم، عنهم، سيئاتهم، بالهم) ضمائر ظاهرة مرجعها واحد هو اسم الموصول (الذين) بينما الضمير المستتر (هو) في (كفّر ، أصلح) عائد إلى اللفظ (رب).

فوجود ضميرين بمرجعيات مختلفة في سياق واحد أحدهما ظاهر و الآخر مستتر، يجعل الكلام حياً برباط وثيق يشد السامع إليه مع إحداث نغمة كلامية تأنس لها النفس و يطمئن لها الإفهام

و قد أشار إلى ذلك د: عبد الله الطيب بقوله: (إذا كان التكرار هو إعادة الوحدة التي بدأت بها على نظام مخصوص، لهذا التنوع فإنه يستبدل الوحدة بعد فترة بوحدة أخرى متباينة لها شيئاً يسيراً تعيد هذا النسق فيما بعد فيكون الحاصل وحدة زخرفيه قوام الوحدة فيها هو التكرار و قوام الانسجام فيها التنوع و انطواؤه في سجل التكرار فيتضح من ذلك أن سرّ الانسجام كله إنما هو في التكرار و التنوع)[9] (الطيب عبد الله – بدون).

فتكرار الضمير و عدد مرات تكراره له دلالات ترتبط بالنص و المستمع إليه. فالدلالة المرتبطة بالنص هي الوحدة الجاذبة المحكمة بينما الدلالة المرتبطة بالمستمع فإن غرض التكرار الأساسي هو الخطابة و هي أن يعمد المتحدث إلى تقوية ناحية الإنشاء (العواطف) كالتعجب و الحنين و لاستغراب و هي معاني الغالب فيها إثارة انتباه السامع.

و في بعض الأحيان نرى التركيب عندما يكون الغرض منه لفت نظر السامع نراه يستخدم ضمائر ذات مراجع قريبة و غير متكررة لتكون أقرب إلى ذهن السامع دون كثير عناء نحو قوله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم و للكافرين أمثالها}الآية (10)

فالضمير في (يسيروا، ينظروا، قبلهم) عائد على (الذين كفروا) بينما الضمير في (عليهم) (عائد على الذين من قبلهم) و الضمير في (أمثالها) عائد على العافية.

إن التعبير بالضمير يخرج عن الأطر الزمانية و المكانية المباشرة إلى معنى عام، فمثلاً في الآيات يتحدث السياق عن المنافقين دون ذكر لفظ المنافقين أو اسم أحد المنافقين لأنه لو فعل ذلك لجعل الحديث خاصاً ينتهي بانتهاء الموقف في زمانه و مكانه و لكن التعبير له به بمعونة الإشارة و الموصول يخرج بالكلام إلى عموميته و جعله مميزاً و متوافقاً لكل الأزمان و الأمكنة.

أما إذا نُظر إلى الضمير من زاوية البناء القصصي و مفهوم القصة ((فإن الحبكة القصصية كون حوادث القصة و شخصياتها مرتبطة ارتباطاً منطقياً يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محدودة)(إسماعيل عز الدين – بدون). فإن للضمير دوراً بارزاً في إظهار ذلك.

نحو قوله تعالى: {و استبقا لباب و قدت قميصه من دبر و ألفيا سيدها لدى الباب قلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم}– يوسف(25)،

نجد أن الأفعال (استبقا – قدت– ألفيا– قالت) قد كونت في أذهاننا جزئيات الواقعة أفعال تحدث و كلام يقال و مشاهدة، تشارك فيها ثلاث شخصيات دون أن يذكرها صراحة، و لكنها مفهومة لدى السامع بفعل الضمائر التي وردت، ممزوجة بالعنصر النفسي الذي تصوره هذه الأفعال، و الذي من شأنه يكسب العمل القصصي الحيوية.

يظهر دور الضمير بأنواعه عند عرض الأحداث و الشخصيات. فقد تبدأ في فترة زمنية خاصة من حياة الشخصية الرئيسية في منظر صامت ينفجر فيه اللاشعور بالذكريات و الأحلام. بالرجوع إلى الوراء فيترك الكاتب بطل قصته يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم ليخلق الشعور بالألفة و الثقة.

و قد يكون عرض الأحداث بطريقة السرد المباشر و فيه يقف الكاتب يرصد سلوك أشخاصه و يتحدث عنهم بضمير الغائب و قد يكون عرض الأحداث بطريق الحوار و هو وسيلة التفاعل بين الأحداث و الشخصيات و هو الأداة التي تتواصل عن طريقها الشخصيات لينمو البناء القصصي، سواء كان الحور بين الشخصيات مع بعضها البعض في الموقف أو حوار الشخص مع نفسه. و أداة ذلك ضمير المخاطب و المتكلم و يعينها ضمير الغائب من خلف المشهد.

فالضمير يساعد في إظهار الشخصية و اختصار اللفظ بعدم تكرارها. فعند بيان الشخصية يسند لفظ القول بصيغة الماضي إلى اسم ظاهر معرفة أو نكرة، ثم يعقبه ضمير للغائب مضاف إلى اسم يمثل شخصية جديدة تظهر لأول مرة يحدد ملامحها للذهن الضمير. ثم تتولى الضمائر بين مخاطب و متكلم لتنمو الأحداث بعدها.

قال تعالى: {إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً} ، قال تعالى: { قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك}

كما أن للضمير دور في إخفاء الشخصية و إظهارها في آن واحد لأغراض بلاغية نحو قوله تعالى:{قال قائل منهم} فلو حذف الضمير في (منَهم) لظن السامع أن المقصود أي قائل (عام) لكن بذكره قد حصره غير أنه يظل غير محدود و تظل هذه الشخصية ملازمة لسلوكها الحميد، تظهر في القصة بإشارة الضمير (لا تقتلوا يوسف) . (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا).

و كذا أنه يقوم بتصوير العاطف للأذهان بإسناد الضمير إلى الأفعال الدالة على الحركة.

{و راودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، و لقد همت به و هم بها لولا أن رأى برهان ربه }.

فهناك حركة و أفعال تقع استعان في تصويرها بالضمير المسند إلى الفعل و قد أكثر منها بتوالي ليكشف العاطفة الداخلية و نشوة النفس في ثورة عارمة تزول بقول من هو خارج إطارها الزماني و المكاني عزيز مصر (يوسف أعرض عن هذا) و يسدل الستار.

فالضمير أداة لتصوير الحدث و إظهار الشخصية الرئيسية و الشخصيات الثانوية فمثلاً أخوة يوسف يظهرهم القرآن بالشخصية الجمعية الموحدة في كل تصرفاتهم و سلوكهم من بداية القصة حتى نهايتها. إلا أن هناك شخصية واحدة كانت متزنة.

و الغالب في تنامي الأحداث استخدام الحوار و هو أكثر الأساليب في الإقناع الذهني فترد فيه الضمائر بين متكلم و مخاطب و غائب.

النتائج و التوصيات

1/ إن ضمائر الغياب أكثر انتشاراً في الكلام لترسيخ اليقين و الإقناع النفسي بربط ذهن السامع بالمعنى و كسر الملل و الغالب في مرجعها أسماء الموصول و الإشارة.

2/ الضمير المضاف إلى الأسماء دلالته الملكية على الإطلاق. لأن حرف الجر المقدر هو (اللام) لأنها لا يشترط في تقديرها شرط كما هو الحال في تقدير (من و في) عند الإضافة فالدلالة تقع على أذن السامع بلا مشقة أو عناء.

3/ عند اتصال أكثر من ضمير يتولد الالتباس فيعتمد على التحديد أو التعيين على قرب الضمير و بعده عن ذهن السامع.

4/ الضمائر المنفصلة لا لبس فيها لأنها أقرب إلى ذهن السامع و تضمنها معنى الإشارة التي لها أثر في الانتباه و التركيز.

5/ إن ضمائر الحضور من حيث الدلالة الصوتية تبدأ بالجهر و تنتهي إلى المد أو تبدأ بالجهر و تنتهي إليه مع تضمن معنى الإشارة في أوله، غير أن ضمائر الغياب تبدأ بالهمس و تنتهي بالجهر مع تضمن معنى الإشارة في آخر الضمير ذلك لقرب و بعد الضمير من المتكلم و تأثيره على ذهن السامع.

6/ إن الضمائر تتداخل في سياق الكلام بمرجعيات مختلفة بصورة متباينة دون أن تحدث خللاً معنوياً أو تنافراً في اللفظ يأنس له السامع.

7/ إن وجود ضميرين أحدهما ظاهر و الآخر مستتر بمرجعيات مختلفة في سياق واحد يجعل الكلام حياً برباط وثيق يشد السامع.

8/ تستخدم ضمائر الحضور عند التوجيه المباشر أو تكليف يخص المخاطب أو نقل الكلام إلى موقف الحال، أم عند لفت نظر السامع يستخدم ضمائر ذات مراجع قريبة و غير متكررة لتكون أقرب إلى ذهن السامع.

9/ إن الضمير من الروابط الاسميةيتميز بصفة التكرار و التنوع لإحداث نغمة صوتية تأنس لها أذن السامع دون خلل في المعنى أو تعقيد اللفظ.

التوصيات :

1/القصة القرآنية من الأساليب و الطرق المتفردة في مخاطبة النفس البشرية و التأثير فيها، فالنفس تسترسل معها في راحة شعورية تامة متتبعة كل صغيرة و كبيرة من معنى، و يظل أثرها على الذاكرة لذا نوصي أن تكون وسيلة لتوصيل المعرفة و المادة العلمية.

2/ هناك ملامح تربوية تظهر في الأسلوب الحواري عن طريقة تبين المشاركة و التفاعل بين المرسل و المرسل إليه و فيه الإقناع بالحجة و يتيح للمحاور حريته الكاملة في استخدام منطقه العقلي مجرداً عن كل الاعتبارات فيكشف عن مكنون الشخصية لذا نوصي أن يتخذ طريقة للتعلم.

3/ إن التكرار ينطبع أثره داخل نفس الإنسان التي ينبع منها أفعال الإنسان و دوافعه. فتكرار القول لا يقل تأثيراً في أثارة الانفعال و تكوين العاطفة و شحذ الذهن، لذلك نوصي أن تكون دراسة القواعد النحوية من خلال تحليل النص سواء كان نصاً قصصياً أو مجرداً.

4/ أفضل الوسائل لتنمية القدرات العقلية لدى النشء هي دراسة المفردات النحوية عبر المشاركة النصية بتحليل النصوص و إعرابها.

المراجع :

1. محمد حماسة عبد اللطيف، النحو و الدلالة ، مدخل لدراسة معنى النحو الدلالي، ط الثانية،دار غريب–القاهرة، ص:8.
2. المعجم الوسيط ، مجموعة مؤلفين، مادة عرفة.
3. بن عقيل، بهاء الدين عبد الله، شرح بن عقيل، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1 منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان – ط الثانية، ص:88.
4. بن هشام، أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله، قطر الندى و بل الصدى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ، ص:92–111.
5. رمضان عبد التواب، التطور النحوي للغة العربية، ط 1929م، مكتبة الخانجي – القاهرة، ص:80،83.
6. الغلاييني الشيخ مصطفى ، جامع الدروس العربية ، ضبط وتخريج د/عبد المنعم خليل إبراهيم ، ط7 ، ج1 ، 2006م–1427ه دار الكتب العليمة ، بيروت ، لبنان، ص:83،88.
7. صبره محمد حسين ، مرجع الضمير في القرآن ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2001م، ص:9 .
8. أبا الطيب صديق بن حسين بن علي الحسين االقنوجي البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن،ج13 ، دار إحياء التراث الإسلامي. قطر، ص:47.
9. الطيب عبد الله – المرشد إلى فهم أشعار العرب–ج3–ص:37.
10. عز الدين إسماعيل، الأدب و فنونه، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ص:112.